حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا

للدكتور أحمد سعيدان

لا غرو ان دعوات كثيرة قد انطلقت، وما تزال تنطلق ، من افراد وهيئات ومؤتمرات ، تدعو الى تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، وان هنالك افرادًا وجماعاتٍ يُضيقون ذرعا بهذه الدعوات، فيعارضونها ويطرحون في المعارضة حججا وآراء جديرة بالتأمل والتفكير . وانَّ دعوات الداعين ونواهي الناهين تصطبغ احيانا بصبغة انشائية خطابية او عاطفية انفعالية تنأى بها عن رزانة القرار الحكيم المسؤول، وهي تكادُ دائما تَصْدُر من منطلقات متعددة متباينة : فهي تارةً قوميةٌ وطنيّة ، وتارةً فقهيةٌ لغوية ، وهي احيانا تاريخيّةٌ او اجتماعيةٌ ، وكثيرا ما تتعارض او تتشابك او تتناقض، حتى لتكاد تضيع الحُجّة، ويحتجب الشجرة بأغصانها ، كما يقولون .

واني لأهمُّ ان اقول إنني عازم على ان انحو في عرض القضية منحى موضوعيًا، ولولا اني اجد في من تَعَرَّضوا للقضية مَن يَستهلّون البحث بزعم كهذا، ثم هم يُغرقون السامع او القارىء في متاهاتٍ من مغالطاتٍ ومتناقضات، كفريق يضرب على غير هدى، او يدور في دوّامة .

وكيلا اضرب على غير هدى او ادور في دوّامة ساجنح الى النَّهج العلميّ، فأحاول تحليل الموضوع الى عناصر متميزة بعضها عن بعض ، ثم القي نظرة على هذه العناصر متفرّقة ، لأخلُص من ذلك الى موازنة عامّة، فيها حساب الربح والخسارة، وكشف الحساب، وفيها خطّة واقتراح وبناء .

ولو كان ما نجابه عبـارةً جَبْرية او مُرَكّباً كيماويّـا لوجدنا على الغالب نَهْجـاً تقليديًّا لتحليله الى عناصر متميّزة ؛ ولكننـا نُجابه مشكلة تعيش معنا وتنطوي علـى واقع ماثل امامنا،يقوم علـى جذور غائرة في اعماق تاريخنا،ويمتـدّ الى كثير من خُلُطنا وتطلّعاتنا . فليس ثمّة على ما اعلم،نَهْجٌ لتحليله الـى عناصر سوى إنعام النظر فيـه من زوايا مختلفـة محـدّدة .

الزاويـة التربويـة :

وأولى الزوايـا المحدّدة التي منها أنظرُ في الأمـر هي الزاوية التربوية،التي تَلَمّـا أولاها مَن تعرّضوا للأمر ما ينبغي من عناية واهتمام .

إنّ عملية التعليم عمليـةٌ تربوية ؛ فطبيعيّ ان ننظـر في تعريب التعليم من الزاوية التربويـة المحضة.وتعريبُ التعليم يعني عندنا في الأردن تعريب التعليـم الجامعيّ،ويَنْصَبُّ على التعليم في الكُلّيـات العلميّة. وهذا ما أحصُر البحثَ هُنـا فيه،وإنْ كنتُ اعلـم انّ التعليم غير الجامعيّ يفتقر في اقطارٍ اخرى عربيّـةٍ الى التعريب . وفي مستهَلّ حديثنا عن تعريب التعليم في الكُلّيـات العلميّة طبيعيّ ان نَستذكر ماذا نبغي من التعليم في هـذه الكليات .

إنّ إعطاء الطالب معـارفَ وخبراتٍ تُمكّنُه من اجتياز امتحانـاتٍ معيّنة،ومن ممارسةِ مهنـةٍ محدّدة يؤهّلُه تخصُّصُه لهـا،ليس وحده الهدف من التعليم الجامعي؛اذ لَعَلّ مـا في كُتبٍ محدودة قليلة العدد مـا هو اكثر واوفى ممّا يُعطي المحاضرون في الجامعـة ؛ ولعلّ في خبرةٍ هندسيّـةٍ يأخذها الطالب من بنـاء،او خبرة حسابيّة يفيدهـا من مصرف ما،يربو على الخبرة المقنّنة التـي تُعطيها الأعمال المخبريـة الجامعيّة في اوضاع افتراضيّـة مصطَنَعـة .

ان الجامعة جَـوٌّ اكاديميّ مثاليّ،يمارس فيـه الطالب الحياة الموضوعيّة المنظّمـة المُضَبّطة بحرّية رايٍ،وحرية تصرّف في حـدود الموضوعية والنظام والانضبـاط،وعلى نحو يُستهدف ان ينمّي الطالب

نفسه بناءً متكاملا، تبرز فيه شخصيته، وتلمس به مواهبه الكامنة، ويغدو به مواطنا صالحا، ايجابيًا غير سلبيّ، قابلا للتفاعل مع من حوله وممارسة القيادة والريادة ، على خلفيّة من المميزات والقيم التي تسود في المجتمع الذي سيعيش الطالب فيه .

في ضوء هذه الأهداف نسترجع للذاكرة واقع الكلّيات العلمية المتوافرة، او التي يمكن ان تتوافر على ارضنا، فتمثل امامنا ثلاثة انواع من هذه الكليات :

اولا : كلّيات اجنبية **اللغة والطابع**، كالكليات الانكليزية والامريكية التي نعرفها ؛ لغة التعليم والمعاملات والحديث فيها غير العربية ، حتى يندر أن تجد فيها اثنين يتكلّمان بالعربية .

يدخلها الطالب العربيّ فيصدمه فيها امران : لغة لا يُتقن فهمها ولا التحدّث بها ، وبيئة لا يألفها . فاذا هو تكيّف مع البيئة وعجّل في اتقان اللغة، سارت معه الريح رخاءً، ومضت اموره بأمان في جوّ اكاديمي مثاليّ خصب . اما اذا هو تعثّر في هذا او ذاك، فقد ينقطع به الحبلُ في وَسَط الطريق، وقد يُبلغ نهاية الشوط خائرَ القوى مُقطّع الأنفاس .

وتظلم هذه الكلّيات اذا لم نعترف بانها تُحقّقُ لابنائنا معظم الأهداف التي استرجعناها فيما سبق .

ولكنّنا نظلم انفسنا اذا لم نعترف ايضا بانها تَصْدُر عن قيم واخلاقيات لا تنبعث من بيئتنا وجذورنا التاريخية، وانّها تُعِدّ الطالب لمجتمع غير المجتمع الذي سيعيش فيه .

لقد خرّجت لنا هذه الكلّيات نفرا من خيرة ابنائنا وقادة الفكر فيما بيننا ؟ ولكنّها اجنبية ، فهي لغيرنا، ادارتُها ليست بيدنا، وسياستُها ليست من صُنعنا، وان من حقّنا ، كسائر شعوب الارض ، أن يكون لنا جامعاتُنا التي تُنشأ بمالنا، ويديرها رجالنا، ويملؤها ابناؤنا، وتُرسَم سياستها في ضوء حاجاتنا وخططنا وتطلّعاتنا .

انطلاقا من هذه الحاجة ظَهَر بيننا النوعُ الثاني من الكلّيات، وهي :

ثانيا : كلّيات عربيةُ الوجه واليـــد واللسان :

قـــد يدور في خَلَدنا انّ هذه الكلّيات تُحقّق كلّ مـــا تُحقّقه الكلّيات الأجنبية وتزيد على ذلـــك ، اولاً لأنّ الطالب العربـــي اكثرُ استيعابا للمعرفة بلغتـــه، ومن ثَمّ فهو اعمق فَهمًا وأولـــى بالابداع، وثانيًا لأنه لـــن يُضيع وقتًا وجهدا في اتقان لغـــةٍ جديدة؛ وثالثا لأنّ الكلية تُعِدّه لمجتمعنا العربـــي، وتُنَشّئه على خَلفيّة مـــن قِيَمنا واخلاقنا وبيئتنـــا وتراثنـــا .

ولكن الواقعَ غـــيرُ ما نتوقّع ، لا في الكلّيات العلميـــة ولا في الكلّيات الانسانية او غيرهـــا من الكليات . ذلك ان العلـــم ينمو في هذا العصر على نحـــوٍ يوصَف بالتدفّق او التفجُّر ؛ ومع نمـــوّ العلم وتَدفّقه يمضي تطـــوُّرُ مناهجه بسرعةٍ فائقة، حتـــى اينذر ان يعيش كتابٌ علمـــي صالحًا دون حاجة الى تعديل ، اكثـــر من خمس سنوات . وهو ينمو مـــادةً ومناهجَ على ايـــدٍ غير عربيّة، وتُعبّر عن الجديد فيه والتجديد ألْسِنَةٌ غيرُ عربية ، في دوريّات كثيرة اجنبية .

فالكلّيات العلميـــة التي جَعَلت العربيّةَ لغـــةَ التداول والتعليم، حَجَبَتْ نفسها عـــن منابع العلم، ولذا ما لبثت ان وَقَفـــت بمعزل عن تيّار التطوّر، سواء في المـــادة العلميّة والتعليميـــة ، ام في اســـاليب عَرضها ، بـــل في اجهزة البحث والتدريس . انّ جُلّ ما تنتجـــه هذه الكليات إنمـــا هو اجترار وتكـــرار .

هـــذا واقعٌ كُلُّ مَن يُدرك التطوّر العلمـــيّ المعاصر لا يستطيع إنكاره ؛ ولقد قـــال قائلون جَدَلاً إنّ القِلّـــة القليلة من خريجي هذه الكليات هي وحدهـــا المؤهّلة للاستزادة من العلـــم، وهي وحدها التي ستحتاج عندمـــا تستزيد الى اتقان لغـــة اجنبية ، وعندها نَدْفَع بها الـــى موطن هذه اللغة . وهـــذا قولٌ يَنِمّ على سطحية وسذاجة ؛ فالعلـــم الحديث ليس حُلِيَةً يَتَحلّى بهـــا من يشاء

او من يشاء،ولكنه حياةٌ وطريقةُ حياة،تُلْمَسها في البيت والمدرسة والمكتب والشارع وكل مكان، وينبغي أن تجدها لدى المعلم والطالب على السواء . حتى الكليات الانسانية،التي مادتها مربيّةٌ في كل شيء،قد تحجّرت لانها افتقرت الى المنهجية التي نلمسُها واضحة في الكتب الأجنبية المتقدمة ، والتي بدونها قلّما يكتمل بحث او تكتمل دراسة .

وهنا امران يتبرّم بهما جُلُّ الحادبين على العربيّة،الداعين الى استعمالها في كلّ مراحل التعليم : احدهما الحديث عن هذا التدفّق السريع في المادة العلمية واساليبها،وثانيهما هذه المنهجية التي ازعم اننا نفتقدها في الكتب العربية ؛ فقد يَحْسُن الاَّ نَمُرّ بهما سراعا دون مزيد من التوضيح .

امّا عن تزايد المعرفة،فيكفي ان نشير الى ان مؤسسة اليونسكو نشرت قبل حوالي عشر سنوات احصائيةً تشير الى أنّ مطابع العالم تُخْرِج في كلّ اربعين دقيقةً من الكلام المطبوع ما لو جُمِع في كتاب واحد لبلغ هذا الكتاب اربعةً وعشرين مجلّدا ، كلٌّ منها بحجم المجلّد الواحد في الموسوعة البريطانية المعروفة ؛ وانّ ما تُصدِرُه هذه المطابع في اليوم الواحد ينطوي على اكثر من خمسين مصطلحا علميًّا جديدا،لم يكن له قبل يوم واحد وجود .

ولعلمي ان الناس يُنْسَون،ادعو القارىء الى ان يتذكّر كيف كانت وسائلُ المواصلات،مثلا،قبل ثلاثين عاما،وكيف هي اليوم . إنّ الذي مَكّن لهذه الطفرة الواسعة انما هو فيضٌ من المنجَزات العلمية والتكنولوجية،نَقَلَت العالم من عصر الكهرباء الى عصر الطاقة النووية والحاسبات الالكترونية وسباق الفضاء .

وهذه المنجَزات لم تُحَقّقْها عقول عربية،ولم تُفَصِّلْها لنا كتب عربية ، وهي المادة العلمية التي تُسَيِّر حياة العصر وتزحم مناهج الدراسة،وبتطوّرها تتغيّر الحياة،وتتبدّل المناهج.ونحن لا

نملك حيالها الا ان نقف تلاميذ مستقبلين؛ هذا اذا اتيح لنا ان نفتح النوافذ لاستقبالها ، فان لم نفعل فذلك هو التقوقع الذي لا يلبث ان ينجلي عن تخلف من فاته القطار .

هذه حقائق ، لا مبالغة فيها ولا سبيل الى تجاهلها او انكارها ؛ وإنّ من الخير ان نشعها نصب أعيننا اذا كنا نسالم الى تخطيط محكم فعّال .

سيقول قائل : إن دخول العربية من الباب لا يعني هرب الانكليزية، مثلاً، من الشباك . صحيح انه لا يعني ذلك ، فلا لزوم لان تهرب اللغة الأجنبية لأنها لم توجد اصلا ، الا اذا حسبنا ان الفيزيائي الذي يقضي عمره يدرّس الفيزياء في كتب عربيّة يسهل عليه فهمها في مراجع اجنبية . كلاّ ، حتى لو كان يتقن اللغة الأجنبية قراءة وحديثا . ليس صحيحا عندنا ان العلم ليس له لغة؛ وإن خبرتنا في الجامعة الاردنية لدليل ماثل على ذلك .

أما المنهجية التي اشرتُ اليها فهي اسمٌ آخر للطريقة العلمية في البحث والاسلوب العلمي في عرض نتائج البحث .

المنهجية اخلاق ؛ انها موضوعية تتوخى البحث عن الحق وحده، وتبحث عنه بلا هوى ولا نزق ولا انفعال، ثم تعرض الحق، ولا شيء غيره ، بلا تكلف ولا رياء ، ولا بهرجة ولا تلوين ، وباسلوب يعطي الكلمة حجمها الطبيعي، فلا يصف بالعظمة الا من كان له منها نصيب ، ولا يعدّ عظيما جدًّا الا من كان نصيبه منها وافرا ؛ المنهجية تعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؛ فاذا عرض امرؤ نتيجة بحثه، ذكر من ساروا في الدرب قبله، واين وصلوا، وماذا حققوا ، ثم ماذا كان دوره هو، وايّ جديد حقّق ؛ والمنهجية امانة ، امانة تجاه الحقيقة، وتجاه القارىء والتاريخ .

ليس في المنهجية نفاق ولا اسلوب خطابي ولا ،بالغة ولا بهرجة كلام غير ذي مضمون ، وليس فيها تلوين للحق ولا تحريف له ولا افتراء عليه . وما احوجنا الى هذا كلّه في ما نقرأ وما نكتب .

ولم يَسْبق الغربُ الى المنهجية : لقد بدأت بالاسلام في عصوره الأولى عندما كان رواةُ الحديث يَشدّون الرحال، ويَقطعون آلاف الفراسخ من اجل التأكّد من نَصّ ما نُسِبَ لراويه ما . ولكنَّ المنهجية ضاعت في العصور الاسلامية المتاخرة ، ولقيها الغرب في اواخر القرن الماضي بعد معاناة طويلة شهد فيها كثيرا من الافتراء وكثيرًا من الادعاء . وها نحن اليوم نَجدُها في البحوث العلميّة الغربية،وفي الكتب العلمية الاوروبية، وكثيرا ما نَفتقدها في البحوث والدراسات العربية . لقد جَمَعَ بيرسون في فهرسه الاول كلَّ ما نُشِر في الدوريات من بحوث ودراسات حول الفكر الاسلامي،من مَطْلع هذا القرن الى سنة ١٩٥٥ (المجلد الاول) زهاء ٢٦ الف بحث،ليس بينها بالعربية بحث واحد تتوافر فيه عناصر المنهجية .

خوفًا من التقوقع،وحُبًّا بالمنهجية،اختارت بعض الجامعات العربية نوعا ثالثا من الكليات العلمية،وهي :

ثالثا : كليات عربية انكليزية :

لغة الحياة والمعاملات في هذه الكلّيات هي العربية ، ولكنَّ لغة المحاضرات والدرس والامتحان هي الانكليزية : فالكُتُب المقرّرة والمراجع انكليزية،وعلى هذا فالباب مفتوح على مصراعيه لأحدث المناهج ، ولا خوف عندنا من تقوقع او تَحَجُّر .

بعضُ الناس يَصعُب عليهم ان يَرَوا الواقع ، وبعضُهم يَصعب عليهم ان يَعترفوا بما يرون،وهؤلاء جميعا قد يُعْتَبون علي اذا قلتُ إنَّ الطالب المتوسّط عندنا يفقد لغته ولا يتقن الانكليزية ،

بالضبط كالغراب الذي قلّد مشية غيره . اننا لم نضعه في جو يتعلّم فيه الانكليزية ، لا حديثا ولا كتابة ، وانما طالبناه ان يُفهم ما يقرأ وما يسمع . اما ما يقرأ فتلك مادة الكتب المقررة، يقابلها بها الطالب منذ اللحظة الاولى، فتحدث لديه رعشة وفي نفسه عقدة ، وقلّما تزول تلك الرعشة، وقلّما تُحَلُّ تلك العقدة ؛ فلا ينبغي أن نحسب انه يُفهم ما يُقرأ فهمًا تامًّا ، ولكنّها صُوَرٌ لذلك المقروء تُرتسم في مخيّلته، ومعها تصوراتٌ غائمة قلقة لا تلبث أن تنمحي، فيغدو وكأنه لم يقرأ شيئا .

وأمّا ما يسمع الطالب في المحاضرات فقلّما يكون انكليزيًّا، وانما هو خليط من انكليزية سقيمة وعربية عامية، ومع ذلك ربّما كان هذا الذي يسمعه هو وحده الذي يفيد منه الطالب في جامعته اذا هو أحسن الاستماع، او اذا احسن المعلم الاداء ؛ لأنّ طلّابنا قلّما يُرجعون الى المراجع لأنهم لا يفهمونها ، وقلّما يُحسنون استعمال كتبهم المقرّرة لانهم لم يُهيّأوا لها ؛ وهم قلّما يناقشون في المادة العلمية لانهم لا يحسنون الحديث بالانكليزية ، فما هي النتيجة ؟ يَنْضَمّون الى تلك الاكثرية الساحقة السلبية، التي تُجهد نفسها في تحصيل بعض الفهم تحصيلا مؤقتا من اجل الامتحان، وينتهي بانتهائه .

جاءتني قبيل الامتحان طالبة في السنة الاولى في حالة هستيرية تقول : كلُّ مسائل PERCENTAGE هي طلاسم بالنسبة اليّ، فَهَلّا افهمتني عمَّ تبحث ؟ قلت : الم تدرسي النسبة المئوية في الصف التوجيهي ؟ قالت بلى ؛ قلت ذلك هو ما تبحث فيه ؟

— صحيح ؟

— نعم

— اذن " PERCENT " معناها "في المائة" ؟

— بالضبط

— ما اغباني !

وفي الامتحان رايت طالبا مضطربا يريد ان يستوضح معنى كلمة " Sphere ". وبعد الامتحان جاء الطالب يجادلني مؤكدا ان معلمه فسر الكلمة بمعنى "الجَوّ"، فلما اكّدتُ له ان الجَوّ يقابلها بالانكليزية كلمة " Atmosphere " ، شعرت بالطالب كأنّ شبكة معقّدة قد انحلّت امام بصيرته .

سيقول قائل : هذا الذي تَصِفُه حالاتٌ فرديةٌ شاذّة، تَحْدُث في مرحلة مبكّرة ولا تحدث فيما بعد ذلك. ولكنني اتمنّى لو ان احد المهتمّين بالامر كَلّف مجموعة من الطلّاب العلميين، في نهاية المرحلة او بعد التخرج، ان يكتبوا له اسطرًا قليلة ، بالانكليزية او العربية، في موضوعٍ ما يتعلّق بتخصّصهم ؛ عندها سيجد عجبًا . انسى مع طالب مَنَحْناه الماجستير في الرياضيّات قصةً عجيبة ؛ هذا الطالب لا اذكر اسمه ولكنّي لا انسى قصتي معه ؛ فأنّه في كلّ سنة من سنوات دراسته للبكالوريوس، ولا اذكر انه في مرّة واحدة ناقَشَ او وَقَفَ لالقاءِ سؤالٍ او اقتراحِ حلّ . كان دائما مع الصامتين الذين يحسنون الاستماع ، فاذا جاء الامتحان يُحَلِّق مع المتفوقين .

ومُنِح الطالب البكالوريوس بدرجة "جيّد جدًّا"، وتقدم للماجستير، وكان من نصيبي ان اعطيه مساقا من هذا المستوى . وكان من واجباته في هذا المساق ان يُعِدَّ تقريرا مكتوبا، وان يَشْرَح مادته في الصفّ كيما نناقشه . وقد اكّدتُ على الطلاب ان يُعِدَّ كلٌّ منهم تقريره بالعربية، كيما يجري النقاش بالعربية ؛ هذا بالرغم من ان المراجع كلّها بالانكليزية . لقد اردتُ ذلك لأحولَ بين الطلاب وبين النقل الحرفي من المراجع ؛ لقد اردتُ ان يكون لهم دور اكثر من مجرّد التلخيص . ولقد قام الطلّاب بهذه المحاولة، الاّ ان تقاريرهم كانت كمحاضراتِ اساتذتهم، خليطا عجيبا من العربية والانكليزية ، الا هذا الطالب، فَقَبْلَ الموعد المحدّد لمناقشة تقريره، جاءني يرجو ان يُقَدِّم تقريره بالانكليزية

لانه لا يستطيع نقلـــه الى العربية . وحين اخـذ الطالب يقرأ تقريره، مضى حوالي ربـــع ساعة حتى تأكّد لديَّ انـــه يتكلم هذا بالانكليزية، كان تقريره علـــى النحو الذي أَلِفناه من طلابنـــا : فقرات مقتبسة من المرجـــع أو المراجع، ولكنَّ الفـــاظ الطالب كانت عجيبة ، لا تَمُتُّ الى أيـــة لغة ؛ حتى تلك الالفاظ التي تتكرّر في كـــلّ محاضرة في موضوع تَخَصُّصِه ؛ لقـــد سمعها اكثر من مائـــة مرة من عدد من المحاضرين ، ولكنَّ لـــم يتقن لفظها، فلَفَظَها بطريقـــة مضحكة تبعث في النفس السخريـــة ؛ والتفسير واضح : لقد كـــان الطالب يَحضر المحاضرات ويصغـــي ، ولكنَّ فكره كان مشغـــولا بكان يُحاول على ان يحفظ صُوَر المـــادّة التي يجدها في الكتاب، فيعيد رســـمها على نحوٍ ما في الامتحـــان ؛ ولو كان أعمق من ذلك فهمًا لما عجز عن نقـــل المعاني الى لغتـــه .

والنتيجةُ واضحة، أنّنـــا لم نُخَرِّج فيه طالبـــا يستطيع ان يكون مواطنا صالحا، يفيـــد مجتمعه بعلمه وتَخَصُّصِه ، لا بالعربيـــة ولا بالانكليزية ولا بخليـــط من اللغتين ، ولا خرّيجًا يُمْكِـــن في اي مجتمع ان يُعْطيَ عـــن جامعته فكرة طيبة . ومـــا اكثر الدلائل على ان القلّة من خرّيجينا هـــم احسن حالا من هـــذا الطالب .

إنـــي أَقْدُرُ لزملائي في الكليات العلميّـــة جهودهم، ولا يدور في خلدي لحظةً انْ أَنتقِص مـــن هذه الجهود وهذا الجهـــاد ؛ ولانَّ النقد الذاتيَّ دليلُ عافيـــة، والاعتراف بالواقع علامةُ قـــوّة، والطـــامح الـــى الأحسن والعمل مـــن اجله بشيرُ صحة. وانّ من القـــوّة والصحة والعافية أن نراجـــع مواقفنا، ونتبيَّن مواقـــع اقدامنا .

مـــا العمـــل ؟

تَتَصّر الكلّيات العربيـــة والانكليزية عن تادية رسالتهـــا كما ينبغي، لانها لا تُهيّىء الطالب للفهـــم والتفاعل مع العلم الـــذي يتعلّمه، بحيث يصير هذا العلم جُزءًا مـــن شخصيّته وكيانه وحياتـــه ؛ ففي كثيرٍ من

الطالب بشخصيتين : شخصية عربية حياتها ومعاملاتها بالعربية ، ولكنْ لا يتعلم بهذه اللغة، ومن ثَمَّ فعِلْمُه ليس عاملا على تهذيب لغة حياته ومعاملاته ؛ وشخصيةٍ محيَّرةٍ تُحاول ان تتعلّم بالانجليزية وهي لا تَفْهَمها، وتحاول ان تُعبِّر عن علمها بهذه اللغة فتتعثَّر . انها ازدواجيةٌ ذات وجهين : وجهٍ ساذج لا يوجَدُ ما يَصْقُلُه، ووجهٍ متخاذلٍ لا يَجد ما يبعث فيه نفحةً من ثقة او قبسا من قوّة .

وتُقصِّرُ الكلّياتُ العربية المحضة عن تأدية رسالتها كما ينبغي، لانها بمعزل عن ينابيع العلم . كان ينبغي ان يرافقها جُهدٌ دائب لتعريب العلم ؛ اي تكوين اجهزة تَعْمَل باستمرار لنقل الفكر العلمي الى العربية ، كُتُبًا ومراجع ودوريات. وهذا يَقضي بإقامة مؤسسات للترجمة والتعريب، تقوم بجانب المؤسسات الاكاديمية التي تُعْنَى بتخريج المتخصّصين، سواء في العلم او في التكنولوجيا ، حتّى يستطيع الطالب والمعلم على السواء ان يصلا الى ينابيع المعرفة بلغتهم التي شاءوا .

ولكنَّ اقامة مؤسسات الترجمة التي تُمِدُّنا بما نحتاج اليه من كتب ومراجع ودوريات مترجمة ومعرّبة، مشروعٌ يقتضي عملا دائبًا غير منقطع، لسنٍ بؤتى أُكُله على نحوٍ مُرضٍ في اقلّ من نصف قرن . فهل ننتظر خمسين عاما حتى تتكاثر لدينا الكتب المترجمة في شتى فروع العلم، ثم نبدا بتأدية رسالتنا ؟ لا ، فهنالك بالتأكيد حلٌّ وسط يُغني قبل تعريب العلم، ويمهِّد لتعريبه .

يقتضي هذا الحل الوسط ان يجري التعليم في الكلّيات العلمية على نحو كالآتي :

١ ـ في السنة الأولى الاكاديمية يتلقّى الطالب علومه الاساسية بالعربية وباستعمال كتب مترجمة ، او غير مترجمة ، ويأخذ في كلّ فصل دراسي مساقا في اللغة الانكليزية ، يُعرِّفه بالمصطلحات العلمية، ويزيده في هذه اللغة قوّة .

٢ — في السنة الثانية يُبدأ تخصُّص الطالب، وفيها يتلقّى علومه بالعربيّة، الا مساقا واحدا في كل فصل يتعلمه بالانكليزية ، من موضوعات تَخَصُّصه .

٣ — في السنتين التاليتين يُجري تعليمُ الطالب بالعربية، مع التأكيد على استعمال مَراجعَ اجنبية ؛ على ان ياخذ في كلّ فصل مساقا واحدا على الأقلّ من موضوعات تخصُّصه بالانكليزية . ويُتعلَّم استعمال الطالب للمراجع الأجنبية بحيث يغدو الرجوع اليها من مستلزمات تَخَرُّجه .

اذا جرى في الوقت نفسه ترجمةُ الكتب العلمية بنشاط ، أمكن تحقيق الهدف المنشود في وقت غير طويل .

اننا نعتقد انَّ مِثلَ هذا الحلّ الوسط اكثرُ فائدة للطالب العربي مما تنتجه الكلّيات العربية المحضة، والكلياتُ العربية الانكليزية ؛ وهو بالتأكيد اقلُّ خَطرا . انه يَضْمن تقوية الطالب باللغة الانكليزية ، ثم هو نَهْجٌ مرنٌ قابل للتعديل. ولعلَّ ما يلزمنا في هذه المرحلة من حياتنا انْ نُقَوّيَ الطالبَ في لغتين لا واحدة، بالاضافة الى اللغة الام .

الزاوية اللغوية :

أما وقد بان من الزاوية التربوية ايّ نَهْج ينبغي أن نسلك، فذلك هو القول الفصل .

ولكنَّ هنالك من يتساءلون : أتستطيعُ العربيّةُ ان تستوعب لغة العلم والتكنولوجيا ؟

هل اللغةُ تَخْلق الفكر ام الفكرُ يَخْلق اللغة ؟

وهنالك من يُجيبون، فيتحدّثون عن مرونة العربية واشتقاقيّتها ، وعن تجربتها السابقة. وفي طيّات هذا الحديث وذاك تَرِدُ اقوالٌ هي مثارُ جدل ونُقَطُ حوار . وهذه كلُّها في تقديري معاركُ جانبيّة لا تُثْمر

ولا تنفع ، ولكلّ لغـــة خصائصُها وعبقريّتها ؛ ونحن نعرف مـــن خصائص الامة العربية وطواعيّتهـــا للفكرة الدقيقة ما قـــد يَتّسع فيه مجال الحديث، ونخرج بـــه عما نستهدفه من هـــذه الكلمات .

ولكنَّ الخبرة الماثلـــة امامنا تشير الى انَّ لغـــاتٍ نجمت من لا شيء، وأُريدَ لها ان تنشـــا وليس لها من الخصائص شيء ؛ ثـــم هي بإرادة اهلها استَوعَبَت لغـــة العلم والتكنولوجيا ، لـــم تَضِق بها ولم تَخْنُقها .

ان مئاتِ الأقطـــار في الشرق والغرب تُعَلِّـــمُ بلُغاتها، وتُسْهِم في خدمة العالم على قـــدر طاقتها، وتُحرِز انجازات ؛ واكثرُ هـــذه الاقطار لم تكن لغاتها ولا طاقاتهـــا حتى وقت قريب ذاتَ وزن فـــي المقاييس العالمية .

ومن التساؤلات التي تثـــار : هل نترجم ام نُعَـــرِّب ؟

قـــد لا يكون هنالك قاعدة ذهبية عامّة اولـــى من قاعدة وضعها المجمع اللغـــوي في القاهرة، اذ قال : الاصطلاح العالمي نُعَرِّبُـــه ، اما غيرُ العالمـــي فنبحث له عن لفـــظ عربي .

وقد اعتبروا الاصطلاح عالميًّـــا اذا كان يُسْتَعْمَل فـــي الانكليزية والفرنسيـــة والألمانيـــة .

على ان الاستعمال هـــو وحده الحَكَم في هذه الامور، فقـــد يشيع بالاستعمال لفـــظٌ اجنبيّ، ويَسْقُط لفـــظٌ عربيّ ؛ وذلك كله حسب ذوق الناس واستحسانهم اللفـــظ او استجاباتهم لـــه .

يبقى امر لا بـــد من ذكره لمـــن يتساءلون : هل تَتّسع العربيةُ لغـــةً العلم ، وامام مـــن يجيبون تغزُّلاً بخصائصهـــا .

تُقَـــدَّرُ الكلمات المختلفة التي استعملهـــا شكسبير في مسرحياته بنحو ١٤ الـــف كلمة ؛ وعلى هذا نستطيع ان نَفْتَرِض ان تلك هـــي سَعة اللغة الانكليزية في ايـــام شكسبير ، عندما كانت خلـــوًّا من الالفاظ العلمية، لانَّ لغـــةَ العلم في البلاد الاوروبية كانت مـــا تزال هي اللاتينية .

امـــا الآن فقد أُحصِيَتْ المصطلحـــاتُ الانكليزية التي تُستعمل في حقل الطـــبّ العام وحده، دون فـــروع التخصص، فبلغت ٧٤ الفـــا .

ماذا يعني ذلـــك ؟ اذ نحسب أن اللغة الانكليزية قـــد اتسعت حتى بلغت المصطلحاتُ العلمية فيهـــا مئات الآلاف، تستَرعي انتباهَنـــا احصائيةٌ اخرى تشير الى انَّ معظم هـــذه المصطلحات هي نفسها فـــي الفرنسية والالمانيـــة . إنّ لغات البلاد المتقدّمة قـــد تفتّحت بعضُها على بعض، وتعاونت معـــا في استيعاب الأفكار العلميـــة .

ان العلم ينمـــو باسرع ممّا تنمو اللغة ، بـــل باسرع من خيال الشـــعراء ؛ وإنَّ كـــلّ لغة لتضيق عن استيعاب العلـــم او مجاراته . ولهذا تلهثُ اللغاتُ وراء العلـــم، ويَضيقُ العلماء بِلُهاثها فيَلجأون الـــى الرمزيـــة يعبّرون بهـــا عن افكارهم .

امـــا رجالُ اللغة فيأخذُ بعضُهم مـــن بعض دون تَحَرُّج، وهـــم يَعتَزّون بمـــا يأخذون ويَعُدّونه إثراء لِلُغتهـــم .

واني اتمنّى لـــو نَنْسج نحن على هـــذا المنوال، فنأخذ عن اللغات دون تَحَرُّج الفاظـــاً وطُرُقَ تعبير، ونَعُدّ ذلك إثـــراء للعربية نعتزّ بـــه ؛ وذلك كيما نواكب التقـــدُّم العلميّ، ونُساير الركب، ونعترف عمليّـــاً وواقعيّاً بأن اللغة كيـــان متطور .

هـــذا ما صَنَعَه أجدادُنا عندما قاموا بِنَقْل الفكـــر العالميّ الى العربية؛ ومـــاذا يضيرنا ان تأخذ العربيّةُ من الـــدم العالمي الغزير كما اخذت في المـــاضي من الدماء الفارسيّـــة والهندية والإغريقية ؟

الزاويـــة القوميّة الوطنية :

اذا شئنا أن نتناول الموضـــوع من كلّ جوانبه ، فلا بُـــدّ من النظر فيه من الزاوية القوميّـــة والوطنية . وهنا يَتّســـع مجال الحديث ؛ فحاملو لـــواء القوميّة والوطنية يقولون إن لغتنـــا هي هويّتنا، وهي مرآة شخصيّتنـــا العريقة المُميّزة ، ثـــم ان الاسلام والعربية همـــا اللذان يحفظان للأمـــة وحدتها، رغم ظواهر التفـــرق والتشرذم التي نشعر

لاسباب سياسية . وعلى هـذا فَهُم يرون ان تعريـب التعليم واجب قومي وطني، بـه نحافظ على هُويّتنا وشخصيّتنا، وبـه نقوّي روابط وحدتنـا .

ولكنَّ من النـاس مَن يجادلون، فَيُشيرون الى بـلاد متفرّقة رغم انها تتكلم لغـة واحدة، ويشيرون الى بـلاد مُتّحِدَة رغم ان فيهـا لغتين رسميتين .

وفي تقديري ان الخوض في هذيـن الرأيين، وتفاصيل مـا لهما وما عليهما، يُخرج بنـا عن موضوع التعريـب .

وفي يقيني انّه لـو وَقَف كلُّ اصحاب الراي ضـدَّ العمل من اجل وحدتنا وتوحيدنا، لوجـب ألاّ يعوق ذلك العمل من اجـل الوحدة، لان بهـا بقاءنا وتكاملنـا وقوتنا .

ولكنَّ لذلـك حديثا آخـر .